



التقوى منكم واليكم

بالبريد الجوي

- ✽ ترحب مجلة التقوى في هذه الزاوية (منكم واليكم) بجميع المساهمات من قرائها الكرام وسنحاول إن شاء الله نشر أكبر عدد ممكن من المساهمات على صفحاتنا، مع التنويه أن هذه المساهمات تعبر عن آراء القراء وليس بالضرورة عن رأي المجلة.
- ✽ نرجو من جميع القراء كتابة مساهماتهم وآرائهم بخط واضح وعلى وجه واحد للورقة، أو طباعتها على الكمبيوتر إذا أمكن ذلك.
- ✽ نرحب بالمساهمات على عنواننا أو على البريد الإلكتروني.

The Editor AL Taqwa, P.O.Box 12926, London SW18 4ZN (U.K)

الشاعر الزاهد أبو العتاهية

بحث وإعداد : أبو جلال المغربي

لطالما حاد التاريخ علينا في مختلف العصور بشخصيات تمسكت بالفضيلة، حاملةً لواءها، وصاححةً حناجرها بالحق، معتمدةً على مقوماتها الذاتية المحدودة وما وهبها الله من ملكات فكرية لنشر الخير والصلاح بين الناس، مستثمرةً إياها لإيصال رسالة الفضيلة وصوتها وبث روح الحياة في مجتمعات استبدلت فيه القيم، وخرست فيه الألسن، وعجزت فيه صفوة المجتمع على أداء ما عليها من واجب ومسؤولية.

نتناول في هذا المقال إحدى هذه الشخصيات القيمة التي بلورت رؤيتها ولبت نداء ضميرها الحي، في زمن سادته مفاهيم مقلوبة ونظرة معاكسة لما هو سائد لدى غالبية أبناء مجتمعاتها؟؟ ومدى التضحية والمعاناة التي تكابدها هذه الشخصيات نتيجة ثباتها على الحق والفضيلة، وبسبب نزوعها إلى الخروج على الواقع الأليم.

أبو العتاهية (١٣٠-٢١١هـ) هو إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، والمكنى بأبي إسحاق، والشهير بلقب أبي العتاهية، شاعر وصانع وزاهد كرس مواهبه الشعرية للدفاع عن الفضائل وترسيخها، وآمن بصدق مقاصد توجهه، ثابتاً على الموقف، ناشئاً التغيير رغم ما واجهه من تحديات ومظالم.

ولد في بلدة تدعى (عين التمر) جهة الكوفة سنة ١٣٠هـ/٧٤٨م بين عائلة فقيرة كانت تكسب قوتها من صناعة الخزف وبيع الجرار. عايش مخاضات عصره السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية منذ صغره إلى شبابه، فتبلورت رؤيته لحال المسلمين وانحطاطهم وفتن زمانهم، ولاشك أن هذه الظروف من العوامل الهامة والبنات التأسيسية في تكوين شخصيته ونموها، والتي ألفت بظلالها على حياته ومن حولها فيما بعد. امتهن صناعة الخزف وبيع الجرار، ومع هذا لم يتخلف عن حضور ومتابعة مجالس الحكمة والأدب والشعر والنهل من معين المعرفة. صقلته هذه التجارب وتملكته موهبة شديدة في نظم القصائد والتغني بها، فصار موهوباً بالشعر يتدوقه ويقرضه، فنال بذلك إعجاب الكثيرين الذين كانوا يترددون إليه لشراء ما صنعه من فخار الخزف، وقد أوردت



بعض المراجع التاريخية في هذا الباب أن الأحداث والمتأدين كانوا يأتونه، وهو جرّار، فينشدهم أشعاره، فيأخذون ما تكسر من الخبز فيكتبونها فيها (كتاب الأغاني).

انتقل أبو العتاهية إلى بغداد وسكن فيها وتاجر ببيع الجرار، فعُرف فيها بلقب الجرار، وعلت مكانته بين الناس بسبب نوعية وغزارة أشعاره وتأثيرها الفعال، مما جعله يحظى برضى حكام عصره، ينشدهم مما تجود به قريحته من شعر. ومما يجدر التنبيه إليه هو أنه لم يتخذ الشعر مكسبا للعيش والاستزاق كما كان عليه حال العديد من شعراء عصره المتملقين للدرهم والعطايا من الأمراء والخلفاء، وإنما كان يتخذ من حرفته مورد رزق له، مما جعل خصومه يعيبنها عليه تحقيرًا وازدراءً؟؟

لقد عان أبو العتاهية الكثير من شباك الحبائل التي أريد له أن يقع فيها محاولةً لإقصائه وكبت صوته. سُجن وذاق الأمرين بسبب بعض آرائه ومواقفه، وقد أنشد في وصف تجربته:

أيا ويح نفس، ويحها، ثم ويحها
أما من خلاص من شباك الحبائل؟؟
أيا ويح عيني قد أضرب بها البكا
فلم يغني عنها طيب ما في المكاحل

حاول أبو إسحاق (أبو العتاهية) أن ينزعل عن البلاط ورجالاته، ويتعد من فخاخ خصومه المتربصين به، وبعد فترة تنسك وبدت عليه سمات الزهد، وسار على هذا النهج متخذًا من شعره دعوة لإصلاح المجتمع والتزهد في زخرف الحياة وملذاتها الفانية. فمن بين معالم زهده وصدق طويته ما أورده كثير من المراجع من روايات أثبتت تحوله المفاجئ إلى زاهد عابد، حيث نقرأ في أحدها ما يلي: " تنسك أبو العتاهية ولبس الصوف..!!" كما ورد في روايات أخرى أنه في فترة زهده أمره الرشيد أن ينشد له شعرا في الغزل، فامتنع؟؟ فسُجن بسبب ذلك. وفي رواية أخرى أيضا ورد فيها: " أقسم أبو العتاهية ألا يتكلم سنةً إلا بالقرآن وبالشهادتين".

تعددت الكتابات التي اهتمت بأبي العتاهية وملابساته سجنه، فمنهم من ذهب رأيه أن ذلك بسبب توجهه نحو الزهد وتزايد المتعاطفين معه والمتابعين له ولزهدياته القصائدية، وهذا في نظر هذه الكتابات أقوى سبب لإبعاده من أوساطه الشعبية المتجاوبة معه حتى لا تتأثر بآرائه مع ما في زهدياته من تلميحات تعتب على الملوك ترّفهم وتعاليمهم، وتذكّرهم بتساويهم في الآخرة بالبسطاء والمساكين؟؟ وهذا دليل كاف في تحليل الباحثين إذ يرى فيه الملوك والأثرياء ما يقلل من هيبتهم في أعين الناس ويكسر مباهاتهم المتعالية.. ونقتبس من أبيات أبي العتاهية في هذا المضمار ما يلي:

يا من تشرف بالدنيا وطينتها
ليس التشرف رفيع الطين بالطين
إذا أردت شريف الناس كلهم
فانظُرْ إلى ملك في زي مسكين؟؟
هذا الذي عظمت في الناس هيئته
وذاك يصلح للدنيا والديين؟؟

وفي مقطع آخر:

ماذا ترجى بقوم إن هم غضبوا
جاروا عليك، وإن أَرْضِيَتهم مَلُّوا
وإن نصحت لهم ظنوك تخدعهم
واستثقلوك كما يُستثقل الكَلُّ
فاستنغن بالله عن أبوابهم كرمًا
إن الوقوف على أبوابهم ذُلُّ
لم تنحصر دعوة أبي العتاهية الإصلاحية في طبقة دون أخرى إذ توجه بقصائده المؤثرة إلى جميع الشرائح الاجتماعية، ينشد منها الصلاح ويزر العيوب السائدة، متنبئًا قضايا الضعفاء والمحرومين والمظلومين، دفاعًا ونصرة لحقوقهم. ومن أشعاره في ذلك:

أخي قد أبى بخلي وبخلك أن يبرى
لذي فاقية مني ومنك مواسية

كِلَانَا بَطْيِينٌ جَنْبُهُ ظَاهِرُ الْكِسَا
وَفِي النَّاسِ مَنْ يُمَسِّي وَيَصْبِحُ عَارِيَا
وَأَيْضًا:

وَأَرَى الْمَكَّاسِبَ نَسْرَةً وَأَرَى الضَّرورَةَ فَشَاشِيَةً
وَأَرَى عُصْمومَ الدَّهْرِ رَائِحَةً تَمُرُّ وَغَدَائِيَّةً
وَأَرَى الْمَرَضِعَ فِيهِ عَمَلٌ أَوْلَادُهُمَا مُتَجَافِيَةً
وَأَرَى الْيَسْتَامِيَّ وَالْأَرَامِيَّ فِي الْبَيْتِ الْخَالِيَّةِ
يَسْتَشْكُونَ مَجْهَدَةً بِأَصْوَاتٍ ضَعِيفَةٍ عَالِيَةٍ
مَنْ يُرْتَجَى فِي النَّاسِ غَيْرُكَ لِلْعَيْوَنِ الْبَاكِيَّةِ مِنْ لِبَطُونِ الْجَائِعَاتِ وَاللِّجْسُومِ الْعَارِيَّةِ
يَا ابْنَ الْخَلَائِفِ لَا تُفْقِدْ وَلَا عَدَمَ عَمَلِ الْعَرَفِيَّةِ
أَلْقَيْتُ أَحْبَبًا رَأً إِلَيْكَ مِنْ الرِّعِيَّةِ شَافِيَّةً
وَنَصِيحَتِي لَكَ مُحْضِيَّةٌ وَمَوَدَّتِي لَكَ صَافِيَّةً
ومن زهديات أبي العتاهية الشعرية المعبرة عن ميولاته الصوفية نقبتس له:

قَطَعْتُ مِنْكَ حَبَائِلَ الْأَمِّ وَالرَّحْمَةِ
وَوَجَدْتُ بَرْدَ الْيَسَاسِ بَيْنَ جَوَانِحِي
الآن عَرَفْتُكَ يَا دُنْيَا؟ فَادْهَبِي
وَفِي مَطْلَعٍ آخَرَ:

يَا خَطَابَةَ الدُّنْيَا إِلَى نَفْسِي
مَا أَقْبَلْتُ الدُّنْيَا لِأَزْوَاجِهَا
أَسْأَلُ عَنْ الدُّنْيَا وَعَنْ ظِلْمِهَا
إِنَّهَا فِي كَيْلٍ يَسُومُ عَسْوِيلُ
تَعَدَّاهُمْ عَدًّا قَتِيلًا قَتِيلُ
فَإِنَّ فِي الْجَنَّةِ ظِلًّا ظَلِيلُ

أُتِّهِمُ أَبُو الْعَتَاهِيَّةِ فِي عَصْرِهِ بِالزُّنْدَقَةِ وَأُفْتَى بِهَذَا بَعْضُ مَشَائِخِ عَصْرِهِ مُشَكِّكِينَ فِي مَقَاصِدِهِ وَاعْتِقَادِهِ، لَعَلَّهُمْ يَنَالُونَ مِنْ مَكَانَتِهِ بَيْنَ النَّاسِ، وَأَشَارَ كَثِيرٌ مِنْ مَخَالِفِيهِ إِلَيْهِ بِالْمُهْرَطَقَةِ وَعَزَوْا تَفْكِيرَهُ إِلَى مَذْهَبِ الْفَلَّاسِفَةِ الْجَاهِلِينَ لِلْبَعْثِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ؟؟ وَفِي رَدِّهِ عَلَى مَزَاعِمِ خُصُومِهِ أَكْثَرَ مِنْ دَلِيلٍ عَلَى بَطْلَانِ مَا يَتَّهَمُونَ بِهِ حَيْثُ أَنْشَدَ:

فَلَوْ أَنَّنَا إِذَا مَتْنَا نُنَا تُرْكُنَا
وَلَكِنَّا إِذَا مَتْنَا بُعْثْنَا
لَكِنَّا الْمَوْتَ غَايَةَ كُلِّ حَيٍّ
وَنُسْأَلُ بَعْدَهُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ
وَفِي رَدِّ آخَرَ:

أَلَا إِنَّ لِي يَوْمًا أَدَانُ كَمَا دُنُنْتُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْأَرْضَ مِنْزَلٌ قُلْعَةٌ
لِيُحْصِيَ كِتَابِي مَا أَسَأْتُ وَأَحْسَنْتُ
وَإِنْ طَالَ تَعْمِيرِي عَلَيْهَا وَأَزْمَنْتُ
وَفِي انْتِقَادِهِ لِمَشَائِخِ عَصْرِهِ:

يَا ذَا الَّذِي يَقْرَأُ فِي كِتَابِهِ
مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَلَا يَعْمَلُ



قد بيّن الرحمن مَقُوتَ السّذي يأمر بالحقّ ولا يفعل
من كسان لا تشبّهه أفعاله أقواله فصمته أجمّل

لقد اتخذ الشاعر الزاهد من منظوماته الشعرية منبراً وعظاً للمجتمع بجميع فئاته وطبقاته حاكماً ومحكوماً، وهذا يفسر نظرتَه وموقفه في قول الحق وتبليغ العظة بالكلمة الطيبة، وتأكيد لموقفه من الإنسان الذي يراه واحداً في الجوهر مجرداً إياه من الألقاب الفخرية التي قد تجعله يتعالى على الناس تحقيراً كما هو حال كثير من المجتمعات. ومن الأخبار بالغة الدلالة على قوة أشعاره في التأثير على النفوس مع ما تحمله من نبرة وعظ وتحريك للعاطفة ما حدث من مشهد أثناء وقوفه بين يدي الرشيد، حيث ورد أنه في أيام سجنه أخرج الخليفة ليسمع من شعره وينشد الغزل. وكان الرشيد محاطاً بثلة من المغنّين من حوله ليغنوا له ما يسمعونه من أبي العتاهية، لكن الشاعر الزاهد نظم لهم من الشعر ما يذكرهم بالأخرة ويحذّرهم من الغفلة؟؟ فلما سمع الرشيد ذلك أخذ يبكي وعيناه تنهمران دمعاً. وإن دلّت هذه الرواية على شيء فإنما تدل على قوة زهديات قصائد الشاعر.

وعلاوة على ما ذكر من زهده وتنسكه في مختلف الكتابات القديمة والمعاصرة، بين مادح ومنتقد لسيرته، يبقى أن أذكر أن أبا العتاهية لم يترك نفسه أو يتفاخر بزهد ادعاءً أو مكابرةً وإنما اعتبر نفسه إنساناً بسيطاً ككل الناس يمتلكه ما يمتلكهم من ميولات ونوازع، إلا أنه يبرز فارقاً وحيداً بينه وبينهم ألا وهو مجاهدته للنفس تزيهياً، كما نقرأ له عن نفسه ونكران ذاته:

ألا من لنفسي بالله سوي قد تماذت إذا قلتُ قد مالت عن الجهل عادات
تزهدت في الدنيا وإني لراغب أرى رغبتي ممزوجةً بزهداتي

وفي الأخير أقول لقد صور لنا هذا الشاعر الزاهد حال عصره أحسن تصوير وهو عصر ما بعد خير القرون كما ورد عن النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، وهذا ما أقرّ به هذا الشاعر حينما أنشد:

طغى الناس من بعد النبي محمد فقد دُرست بعد النبي الشرائع
وصارت بطون المرملة خميسة وأيتائها منهم طريدٌ وجائع
إن بطون المكثرات كأنما يُنقنق في أجوافهن الضفادع
فما يعرف العطشان من طال ربيته وما يعرف الشبان من هو جائع

توفي أبو العتاهية ببغداد سنة ٢١١هـ/٦٢٦م، وكان قد أوصى أن يُكتب على شهد قبره مقطعا من زهدياته لتكون عبرة وموعظة وهي:

أذن حسيّ تسبيّ ممي اسمعي ثم عسي وعسي
أنا رهن بمصر عسي فاحذري مثل مصرعسي
عشت تسعين حجّة أسلمتني لمضجعي
كم ترى الحسيّ ثابته في ديار التزعزع
ليس زاد سوى الثقسي فخذي منه أو دعسي

المراجع:

- * "أخبار أبي العتاهية" - ابن عماد الثقفي أحمد بن عبيد الله. * "أبو العتاهية في شعره وأخباره" - للمعاصر برانق محمد أحمد. * "الأغاني" - أبو الفرج الأصفهاني.
* "أسطورة الزهد عند أبي العتاهية" للدكتور محمد عبد العزيز الكفراوي، القاهرة: دار نهضة مصر. * "ديوان أبي العتاهية" - بيروت: دار الكتب العلمية.
* "الأبوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية" - دار الكتب بمصر. * كتابات المستشرق "غولدتسيهر".